

الحل البسيط والخيار العسير.. التوتر في الخليج وسبل تخفيفه

د. سعد ناجي جواد

ليس هناك اي شك ان منطقة الخليج العربي تعيش فترة من اخطر وادق مراحلها، ومنذ ان اقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على اتخاذ اغبي قرار سياسي تمثل في الاحتلال و تدمير العراق. وعلى الرغم من ان الغالبية العظمى من الأطراف (سواء كانت عراقية او عربية او اجنبية، باستثناء إسرائيل) شعرت، حتى وان كانت، بالخطأ الفادح الذي ارتكبته في التعاون او في تسهيل هذه الكارثة، الا انه ومن المؤسف ان قسما غير قليل من هذه الأطراف لا يزال يصر علىأخذ المنطقة الى هاوية أخرى لا مخرج لها وكارثة مدمرة. المؤسف بل والممكى في الامر ان العرب سوف لن ينوبهم من هذه الكارثة ان حلت اي خير، وان الطرف المستفيد الأول منها سيكون إسرائيل و الولايات المتحدة الأمريكية ثانياً و الغرب ثالثاً.

منذ ان وجدت إسرائيل نجح داعميها و متبنيها و مريديها في الترويج لمفاهيم حاولت، ونجحت في ان تزرعها في التفكير العالمي وبالذات، وهذا الأهم، في التفكير العربي والإسلامي. اول هذه الأفكار هي ان هذا الكيان، كما يردد الغرب والولايات المتحدة، قد أُسسَ (ليبقى) وثانياً ان هذا الكيان قوة لا تقهـر من قبل أية قوهـة إقليمية أخرى، خاصة اذا كانت عربية، وثالثاً ان اي دولة عربية لا يمكن ان يسمح لها ان تصل الى مستوى من القوهـة يمكن من خلاله ان تشكل تحدياً لإسرائيل، عسكرياً او حتى سياسياً. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف زُوِّدَت إسرائيل بكل مستلزمات القوهـة العسكرية، اولاً من قبل بريطانيا لكي تنجح في فرض هيمنتها واغتصابها للأراضي الفلسطينية، ثم تولت الولايات المتحدة المهمة حتى مكنت إسرائيل من اخضاع كل الدول العربية المجاورة وغير المجاورة. الأخطر من ذلك هو نجاح إسرائيل والداعية الغربية في زرع قناعة لدى قيادات واوساط عربية وإسلامية كثيرة مفادها عقم أية محاولة لتحدي إسرائيل، وعندما كانت تظهر بوادر أمل كان يجري التآمر عليها و وأدها و تدميرها. بعد ان تم ترسیخ هذه القناعات لدى غالبية الأنظمة والحكام العرب، بدأت مرحلة جديدة من التآمر تمثل في محاولة خلق تفكير مفاده ان إسرائيل هي ليست العدو الأول للامة العربية والإسلامية، وان التعاون مع إسرائيل يمكن ان يحقق السلام وان الخيار الأفضل للعرب هو قبول إسرائيل كجزء من نظام شرق أوسطي جديد، والأهم هو ان يقبل الفلسطينيون بالتنازل عن حقوقهم وارضهم ويقبلوا ان يكونوا (مواطنين من

الدرجة الثانية في إسرائيل). بدليل ان كل ما قدمته قيادات فلسطينية من تنازلات من اجل الوصول الى حل الدولتين اثبت فشله وانه وهم تم خداعهم به.

الآن تحاول إسرائيل والولايات المتحدة ان تقنع العرب بحل عسير مبني على الادعاء ان ايران هي الخطير الأكبر على الأمة العربية وأنها العدو الأول لها وأنها، وهذا الأهم بشكل، التهديد الأكبر والأخطر على منطقة الخليج. هذا الامر جَرِّدَ الى تعاون مع إسرائيل من ناحية بدعوى درء هذا الخطر، ومن ناحية ثانية الى فرص (إتاوات) على بعض الأنظمة العربية لكي تحصل على حماية مباشرة من الولايات المتحدة وشبه علنية من إسرائيل. ثم جرى ويجري إستنزاف موارد الدول الخليجي باسلحة ومعدات عسكرية بأثمان خيالية، ليس فقط لم تنجح في حماية أجواء وأراضي معظم هذه الدول وإنما ايضاً شكلت عبئاً على هذه الدول، التي كان من الممكن ان تستثمر هذه المبالغ الهائلة في داخلها وعلى ضمان مستقبل شعوبها، بل وحتى في الأقطار العربية الأخرى التي تعاني اقتصادياً. وأكثر ما يؤلم المشاعر الوطنية والإنسانية، ويمثل اهانة ليس بعدها إهانة للعقل العربي، هو ان يقوم رئيس اكبر دولة في العالم بالتبرج بأنه استطاع ان يحصل على جزء كبير من ثروات هذه الدول، وان على هذه الدول ان تدفع المزيد لكي تحصل على حماية أميركية، وهو كلام لا يزال يردد على الملا وبحضور رؤساء وأمراء وملوك عرب، ودون ان يرد عليه اي منهم بالقول ان كل الأموال التي دفعوها ولا يزالون لم تؤمن لدولهم الحماية الأمريكية المطلوبة. علماً بأنه قالها صراحة في اكثر من مناسبة بأنه غير مستعد لان يحارب من أجلهم.

في ظل هذا الوضع المتأزم والمحفوف بالمخاطر، والذي ينبع بحروب كبيرة محلية او إقليمية، سوف يكون اول وأكثر ضحاياها هم من العرب، لابد من التفكير بهدوء وعقلانية للحلول دون الانجرار الى كوارث، تمثل أهدافاً اسرائيلية بأساس، لكي تبقى كيانها بعيداً عن أية مخاطر. لأن الحقيقة التي يحاول الكثير ان يتغافل عنها ويفندها، وسواء اتفقنا ام لم نتفق حول أهدافها، تقول ان ايران سواء بقوتها او بدعمها للفصائل المقاومة في لبنان وفلسطين أصبحت تمثل تهديداً لإسرائيل، وان الأخيرة تريد ان تشاهد، اليوم قبل غداً، ايران مدمرة او محاصرة وعاجزة حتى عن تلبية متطلبات العيش لمواطنيها، كما فعلت مع العراق لمدة ثلاثة عشرة سنة. وفي هذا السياق يدخل قرار الرئيس الأمريكي بإلغاء الاتفاق النووي الذي، و باعتراف كل المنظمات العالمية المختصة، اكد على نجاعته في منع ايران من امتلاك سلاح نووي، (علماً بأنه لم يُتَّخَذ اي اجراء لمنع إسرائيل من امتلاك مثل هذا السلاح المدمر). ان كل الدلائل تشير الى ان ما يجري الان هو من ناحية محاولات لخنق ايران وتركيعها أمريكا واسرائيلياً، ومن الناحية الثانية محاولات إيرانية لرفض هذه السياسة. وهذه كلها تأخذ أشكال مواجهات غير مباشرة في الغالب بين الطرفين، تمثلت في مهاجمة السفن والموانئ والفصائل المسلحة، وكل التصعيدات الخطيرة الأخرى التي تشهدتها المنطقة. ولا توجد اي بوادر لتخفيض هذه التوترات، واصلاً إسرائيل لا تريد لهذا التوتر والتصعيد ان ينحصر بدون ان تحقق هدفها في توجيه ضربة عسكرية كبيرة لإيران ولفصائل المقاومة الوطنية، التي اثبتت انها استطاعت ولأول مرة فرض قواعد اشتباكاتها وقوة ردعها وأساليب منازلتها على

الجيش الاسرائيلي الذي صُوِّرَ على مدى عقود بأنه لا يقهر.

ومن ناحية أخرى فإن الأزمة الحالية، و ماسبقها من تدمير للعراق كدولة و كقوة إقليمية وما يجري في سوريا، كلها بالتأكيد أحداث ساعدت على زيادة نفوذ ايران في المنطقة بصورة كبيرة، لكن يجب التذكير ايضا ان من تسبب في ذلك هو السياسة الأمريكية و الاسرائيلية، وان السبيل الوحيد لضبط هذه الحالة يكمن في حوارات عربية - إيرانية، وليس عن طريق الاعتماد على الحماية الأمريكية - الاسرائيلية، التي لم و لن تتحقق اولا، وثانياً فان ما يجري الان في جزء كبير منه يمثل هدفاً اسرائيلياً طالما سعت اليه، مفاده ابقاء كل دول المنطقة ممزقة و ضعيفة و تنهشها الحروب الداخلية.

في حالة مماثلة ليست بالبعيدة، وعندما حاولت الولايات المتحدة ورئيسها الحالي ان يبتز كوريا الجنوبية كي يبيعها أسلحة لا تحتاجها بدعوى انها ستتحمليها من خطر كوريا الشمالية، وجد قادة كوريا الجنوبية حلاًً اسهل واضمن ويحفظ الموارد لكي تصرف على التعليم والصحة والرفاه الاقتصادي والاجتماعي، تمثل في اللجوء الى الصين لكي تکبح جماح كوريا الشمالية وتنهي تهدياتها لكوريا الجنوبية. و قامت الصين بفعل ذلك، وبهذا وفرت كوريا على نفسها شراء الأسلحة او دفع أية دية إضافية للولايات المتحدة بدعوى حمايتها من خطر جارتها الشمالية. دول الخليج اليوم تستطيع ان تفعل ذلك وبكل سهولة. فاولاً هي تستطيع ان تفتح حوارات مع ايران لتخفيض الأزمات المتصاعدة، وتستطيع وفي ظل الظروف الصعبة التي تمر بها ایران ان تحقق مكاسب سياسية من خلال مثل هكذا حوارات، وان تحد من امتدادات ونفوذ ایران المتصاعد، والأهم انها تستطيع ان ترسی سياسة أمنية متكافئة في منطقة الخليج. وإذا كانت دول الخليج تجد صعوبة في فعل ذلك فانها تستطيع تلجم روسيا التي ستكون اكثر من سعيدة للعب هذا الدور، وكذلك تركيا، بل وحتى بعض دول الخليج نفسها يمكنها ان تلعب هذا الدور، شريطة ان يكون مدعوماً من قبل الدول الأخرى. غير ذلك فان الاعتماد على (النصالح) والтирبيات الاسرائيلية و الأمريكية سوف لن ينتج عنه سوى زيادة في التوتر واستمرار التصعيد، وان ما سينتج عن هذا الجو الملتهب امران. الأول ان الرابع الوحيد فيه ستكون إسرائيل، وإذا كان هناك من يعتقد ان ربح إسرائيل سيخدمه فهو واهم جداً. والأمر الثاني المؤكد ان الخاسر الأكبر ، على الأقل اقتصادياً وبشرياً وبنيانياً، هم العرب وخاصة في منطقة الخليج العربي. ومن يعتقد ان الولايات المتحدة سوف تحارب من اجله ومن اجل حمايته او من اجل نقل مجتمعه الى حالة أفضل هو اكثر وهمـاً، ويستطيع من يشكك في ذلك ان يعود ليقرأ تصريحات وأفعال قادة الولايات المتحدة قبل وأثناء العدوان على العراق وما حل وب hasil بهذا الجزء الغالي من الأمة.

بإيجاز بسيط ان المسألة تحتاج الى حكمة قليلة وقرار لفتح حوار عربي إيراني مباشر وبعيد عن التأثيرات الخارجية، وسيكتشف الجميع كم هو يسير امر تخفيض التوتر ونزع فتيل الحرب التي كثر الحديث عنها والتهديد بها، وسيكتشف الجميع ان الاعتماد على الذات وعلى جهود ابناء المنطقة هو أفضل بكثير وارخص واضمن من الاعتماد على أعداء الأمة الذين لم يثبتوا في أية مرحلة من المراحل انهم مهتمون بها و بشعوبها. وعسى ان يهدى الله العلي القدير الجميع لما فيه خير ابناء المنطقة.

